قصة حَيّ بن يَقْظان لابن طفيل
وأصولها الإسلامية

للدكتور شوقى ضيف

ابن طفيل هو أبو بكر محمد بن عبد الملك – وقيل ابن عبدالله – القيسى ، فهو من أصل عربي ، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة فى برشانة من أعمال المرّية ، وقيل : بل فى وادى آش من أعمال غرناطة ، وقيل : بل فى تاجلة من أعمال جيانِ . وليس بين أيدينا ما يوضح نشأته ، ولا بد أنه نشأ – مثل أترابه في الأندلس – يختلف إلى الكتّاب ثم الى حلقات الشيوخ فى المساجد ينهل منها . وبدا فيه ميل مبكر إلى علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة، ويُظَنُّ أنه تتلمذ لابن باجة أكبر فيلسوف أندلسى فى عصره ، وينكر ذلك بعض من ترجموا له ، وهو إن لم يكن تتلمذ له ، فقد أكبَّ على كتبه يقرؤها ويستوعبها ، كما سنرى فيما بعد . ونراه فى غرناطة طبيبا وكاتبا لعاملها ثم لعامل سَبْتة وطَنْجة ، ويعلو شأنه حين يصبح طبيباً لأبى يعقوب يوسف خليفة الموحدين (٥٥٨ – ٥٨٠هـ) وقد تبع أستاذه ابن باجة يشرح بعض كتب أرسطو ويؤلف بعض كتب فى الفلسفة ، كما يؤلف قصة "حَيّ بن يقظان " ويظل خليفة الموحدين يعقوب بن يوسف حفيًا به إلى وفاته بمراكش سنة ٥٨١ .

وقصة حَيّ بن يقظان قصة فلسفية صوفية تثبت الاتفاق التام بين العقل والشريعة أو الفلسفة والدين وهو يستهلها بأن السلف الصالح ذكر أن جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب لاعتدال هوائها وإشراق النور الأعلى عليها، وفى

تلك الجزيرة تولد طفل من طينةٍ تخمَّرت على مر السنين فى ظروف طبيعية مؤاتية، وأنكر ذلك قوم لتولده بدون أم ولا أب وقالوا إنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة ملكها شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال باهر فمنعها من الزواج ، وكان له قريب يسمى "يقظان" تزوجها سرا وحملت منه ، ولما وضعت طفلها خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها فوضعته فى تابوت أحكمت إغلاقه وقذفت به فى اليَمِّ فحملته الأمواج إلى أجَمة ملتفة الشجر مستورة عن المطر محجوبة عن الشمس ، وأخذت مسامير التابوت تسقط وتضطرب بعض ألواحه . واشتد الجوع بهذا الطفل ، وأخذ يبكى ويصرخ فوقع صوته فى أذن ظبية فقدت طَلاها أو ابنها وكان قد خرج من كِناسه (مأواه) فاختطفه عُقاب ، فلما سمعت الظبية الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت تتخيله لطَلاها حتى وصلت إلى التابوت ، فأخذت تبحث عنه بأظلافها حتى وجدت هذا الوليد ، فحنَّت له وعطفت عليه ، وألقمته حلَمتها ، وأرْوَته لبنها شراباً حلواً وتبنَّته وسارت له كأمه تتعهده وتغذيه بلبنها وتكفله إلى أن تم له حولان وتدرَّج فى المشى ونبتت له أسنانه، وكان يتبعها وهى تترفق به وتحمله إلى مواضع بها شجر مثمر وتطعمه ما سقط من ثمرها الحلو الناضج ، ومتى ظمىء أوردته ماء ، ومتى تعرض للشمس ظللته، ومتى تعرض للبرد أدفأته وأخذ يغدو ويروح مع الظبية حتى ألفه سرب من الظباء ، وأخذ يحكى صوتها ، ثم أخذ يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وسائر الحيوان ، كان يراها جميعا كاسية بالأوبار والشعر والريش ولها أسلحة معدَّة لمن ينازعها مثل القرون والأنياب والحوافر والمخالب ، بينما هو

عارٍ وليس له سلاح يدافع به عن نفسه ، ولاحظ أن سوءات (عورات) الحيوانات تستتر ، بينما سوء تاه مكشوفتان فكان ذلك يسوءه ، وأخذ يسترهما بأوراق شجر عريضة . واهتدى لاتخاذ عصىً من الشجر يدافع بها عن نفسه . وصادف في بعض الأيام نسراً ميتاً ، فقطع جناحيه وذنبه ، وفتح ريشه وسوّاه وسلخ عنه سائر جلده وفصله على قطعتين ربط إحداهما على سُرته وماتحتها ، والأخرى على ظهره ، وعلق الذنب من خلفه والجناحين على عَضُدْه فأكسبه ذلك هيبة فى نفوس الوحوش .

وكان حَىٌّ قد ترعرع وأربى على سبع سنوات ، فصار لا يدنو من حيوان ولا ظبية إلا أمه فإنه لم يفارقها إلى أن أدركها الموت . ورأى جميع حركاتها وأفعالها تتعطل ، فتعجب ، وناداها فلم تجبه ، وأخذ يفكر فيما حدث لها من الموت وفحصها عضوا عضوا فلم ير فى أعضائها آفة ، ففكر أن تكون الآفة فى باطن جسدها وأن يكون العضو الذى حدثت فيه بموضع متوسط من الجسم ، حتى يرفد سائر الأعضاء بالقوة والحياة، وإذا مات ماتت جميع الأعضاء ، واتخذ من كسور الأحجار الصلْدة أشباه السكاكين، وشَقَّ صدرها ، وظل يفتش فيه حتى اهتدى إلى القلب ، ورآه مغطًّى بغشاء فى غاية القوة مربوطا بعلائق متينة . والرِّئة مطيفة به لحمايته ، ورأى له من حسن الوضع وجمال الشكل وقلة التشتت وقوة اللحم ، ما جعله يعتقد أنه سبب الحياة والموت ، ورأى الدم تجمد فيه وفقدت تجاويفه حرارتها فأدرك أنه بارتحال الحرارة من القلب ارتحلت الحياة ، وظن أنه عرف سرَّ الموت ، ورأى غرابين ظلا يقتتلان حتى صرع أحدهما صاحبه ميتا ، فحفر القاتل حفرة وَارَى

فيها ذلك الميت ، فقلده وحفر حفرة ، وألقى فيها جسد أمه وحثا عليها التراب .

وبقى حيٌّ فترة طويلة من الزمان يتصفح أنواع الحيوان والنبات ويطوف بأنحاء الجزيرة وساحلها يبحث عن شبيه له ، فلا يجد أحداً يشبهه بينما يجد لكل واحد من أشخاص الظباء والحيوانات أشباها كثيرة . وذات يوم شَبَّتْ نار فى أجَمة قصب ، فهاله مالها من الضوء الثاقب وأنها لا تمس شيئا إلا أتت عليه ، وحاول أن يقبض على شىء منها فأحرقت يده ، وتأتَّى له أن يأخذ منها قبساً حمله إلى جحره أو كهفه الذى كان يأوى إليه ، ومازال يمدُّ نار هذا القبس بالحشائش والحطب الجزل ويتعهدها ليلاً ونهاراً استحساناً لها وعجباً منها . وكان يزداد أنساً بها ليلاً ، لأنها كانت تقوم له مقام الشمس فى الضياء والدفء فعظم ولوعه بها ، وكان يرى لهيبها يتجه دائما إلى السماء فظن أنها من الجواهر السماوية ، وألقى بها ذات مرة شيئاً من السمك فأنضجته وسطعت رائحته فتحركت شهوته إليه وأكل منه فاستطابه ، واعتاد بذلك أكل اللحم وأخذ يعمل الحيلة فى صيد البحر والبر . ونوَّع الأداة التى يصيد بها فى كل منهما فللبر أداته وللبحر أداته . واستطاع أن يتخذ لنفسه من الشوك والقصب أسلحة يزوِّد بها نفسه ضد الحيوانات . ورأى أن يحافظ على ما يفضل من غذائه فاتخذ مخزنا وحصَّنه بقصب مشدود بعضه إلى بعض حتى لا يصل إليه شئ من الحيوانات عند مغيبه ، وتألَّف جوارح الطير ليستعين بها فى الصيد واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها ، واتخذ من قرون البقر الوحشية شبه الأسنة وركَّبها فى القصب القوى وفى عِصيٍّ الزَّان حتى غدت شبه الرماح واتخذ لنفسه تُرْسا من جلود

مضاعفة وتألف بعض الخيل والحمر الوحشية حتى تأتّى له ركوبها والعَدْوُ السريع عليها ، وعمل لها من الحبال والجلود أمثال الشكائمْ والسروج .

وكان حى حينئذ قد بلغ الحادية والعشرين من عمره فأخذ يتأمل فى جميع الأجسام التى فى العالم فرآها تتنوع بين حيوانات ونباتات وجمادات وتراب وماء وبخار ودخان ، ولاحظ أن هناك صفات مشتركة فى كل نوع على حدة وأخرى مشتركة فى الجنس كله ، سواء فى الحيوانات أو النباتات أو الجمادات ولاحظ أن جنس الحيوان يتميز بالحركة ، وأن جنس النبات لا يتحرك ولكنه ينمو ، وأن جنس الجماد لا يتحرك ولا ينمو ، وأن الاجسام جميعا إما حارة وإما باردة ، وأنها لا تخلو من حركة ، إما إلى أعلى كاللهيب والدخان والهواء ، وإما إلى أسفل كالماء وأجزاء الأرض ، وفكر هل الحركة صفة ذاتية للجسم أو هى لمعنى خارج عنه ، ورجَّح الرأى الثانى . وهداه ذلك إلى التفكير فى الروح لأن كل جسم مركب من معنى الجسمية ومن شئ آخر زائد عليها ، وهو أول ما لاح له من العالم الروحانى ، إذ هذا الشىء الزائد إنما هو صور لا تُدْرَكُ بالحس وإنما تدرك بضرب من النظر العقلى ، وأدَّاه ذلك إلى الاعتقاد بأن الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب لابد له من معنى زائد على جسميته وهو ما يعبر عنه النظَّار باسم النفس الحيوانية ، ومن هنا ازدرى معنى الجسمية واطرحه وتعلق فكره بالمعنى الزائد الروحى الذى يميز نوعا جسميا من نوع . وفكر فى الأجسام المادية ، فرأى لها ثلاث صفات مشتركة ، هى الطول والعرض والعمق ، وأخذ يتأمل فى معانيها وفى المعانى الزائدة عن الجسمية ، واهتدى إلى قانون

السببية ، فالحرارة فى الجسم مسببة عن شئ وكذلك البرودة ، وبالمثل صعود بعض الأجسام الى أعلى لابد له من سبب وهبوطها إلى أسفل لا بد له من سبب ، وبعبارة أخرى لابد له من فاعل يحدثه ، ومازال يلاحظ الأفعال الصادرة عن الأجسام ، واقتنع بأنها ليست فى الحقيقة لها ، إنما هى لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها . ويشير ابن طفيل تأكيدا لهذه الفكرة التى ارتسمت فى ذهن حى إلى الحديث النبوى المشهور عند المتصوفة فيما يحكى الرسول عن الذات العلية " يقول الله تعالى : لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به " . كما يشير إلى ما جاء فى محكم التنزيل من قوله تعالى عن غزوة بدر : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميَت ولكن الله رمى). وبذلك اهتدى إلى فكرة الخالق . ولم يكن فارقَ عالم الحس ، فأخذ يطلبه فى المحسوسات ، فتصفح جميع الأجسام فرآها تتكون تارة وتفسد تارة أخرى ورآها جميعا لا تبرأ من الحدوث والحاجة إلى فاعل لها ، فأبعدها عن فكره واتجه به إلى الأجسام السماوية ، وكان قد أكمل ثمانية وعشرين عاما من عمره .

وفطن حىٌّ إلى أن الأجرام السماوية أجسام إذ لها طول وعرض وعمق كما فطن إلى أن الجرم السماوى لذلك متناه ، ونظر إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب ثم تعود إلى ذلك ففطن إلى أنها هى والفلك جميعاً على شكل كُرَيات وتبين له قدر كبير من علم الهيئة واهتدى إلى أن الفلك بجملته وما يحتوى عليه كشئ واحد متصل بعضه ببعض ، وأن

كل مـايراه فى الأرض من تراب ومـاء وهواء ونبات وحيوان داخل فيه ، وأن الكواكب النيِّرة بمنزلة حواسه وضروبَ أفلاكه بمنزلة أعضائه ، وأن كل ما فى الأرض وما عليها خاضع لقانون الكون والفساد. ولما تبيَّن له أنَ الفلك أو الكون كله كشخص واحد أخذ يفكر فى العالم بجملته هل هو شئ حدث بعد أن لم يكن وخرج إلى الوجود بعد العدم أو هو أمر كان موجودا فيما سلف ولم يسبقه العدم، وانبهم عليه الأمر ولم يترجح عنده أحد الحكمين على الآخر من قدم العالم أو حدوثه ، غير أنه ظل مقتنعا بأن جميع الموجودات به فى حاجة إلى فاعل ، وهو لا يُدْرَكُ بالحواس لأنه لو أدرك بها لكان جسما وكان من جملة العالم وكان حادثا واحتاج إلى محدث ، وهو بذلك منزه عن الجسمية وكل ما يتبعها من الأوصاف ، ولا ريب أنه قادر على خلق العالم وعالمٌ به ، ويستشهد ابن طفيل بقوله تعالى : (ألا يعلمُ من خلقَ وهو اللطيف الخبير) .

وأخذ يتبين لحى فى وضوح افتقارُ جميع الموجودات فى وجودها إلى هذا الفاعل وأنه لا قيام لشئ منها إلا به فهو إذن علة لها ، وهى معلولة له سواء كانت محدثة الوجود بعد أن سبقها العدم أو كانت لا ابتداء لها من جهة الزمان ولم يسبقها العدم ، فإنها فى كلتا الحالتين معلولة ومفتقرة إلى الفاعل متعلقة الوجود به ولولا دوامه لم تدم ، ولولا وجوده لم توجد، ولولا قدمه لم تكن قديمة (يشير إلى من يقولون بقدم العالم) .

ويقول إنه إن لم يتأخر عن الفاعل له بالزمان فهو متأخر عنه بالذات ، ويشعر حيٌّ بوضوح أن العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان ويستشهد ابن طفيل بقوله تعالى : (إنما أمُره إذا أراد شيئا أن يقول له كُنْ فيكون) . ومضى

حى يتصفح الموجودات على سبيل الاعتبار ، وتبين له فى أصغرها كما فى:أكبرها من الحكمة مالا يصدر إلا عن فاعل مختار فى غاية الكمال وفوق الكمال واستشهد ابن طفيل بقوله عز شأنه : (لا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ منْ ذلك ولا أكبر). وتأمل حىّ فى جميع أصناف الحيوان واستخدامه لأعضائه فى جميع منافعه وكيف هداه الفاعل إلى ذلك ، ويستشهد ابن طفيل بقول الله تعالى إنه : (أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) فهو الذى أعطى كل عضو فى الحيوان ما نِيط به من المنافع المطابقة لا حتياجاته مما يدل على قدرته وتفضله . ومازال يتتبع كل صفات الكمال فى الموجودات ويراها صادرة عن الفاعل المختار ، ويتتبع بالمثل كل صفات النقص ويراه بريئا منها منزها عنها ، فهو الوجود وهو الكمال وهو الحسن وهو القدرة وهو العالم ويستشهد ابن طفيل بآية التنزيل : (كلُّ شئ هالكٌ إلا وجهه).

وقد بلغ حى حينئذ خمسة وثلاثين عاما من عمره ورسخ فى قلبه من أمر هذا الفاعل ما شغله عن الفكر فى كل شئ إلا فيه ، وصارلا يتصفح شيئا من الموجودات إلا ويرى فيه أثر الصنعة ، فينتقل بفكره فورا إلى الصانع ويترك المصنوع ، حتى اشتد شوقه إليه ، وانصرف تماما عن العالم الأدنى المحسوس إلى العالم الأرفع المعقول . وتساءل من أين جاء ته هذه المعرفة هل جاء ته من حواسه ؟ . وتصفح حواسه جميعها فرآها لا تدرك إلا الأجسام ، والفاعل المختار منزه عن الجسمية ، وإذن لا سبيل إلى إدراكه إلا بشىء ليس بجسم ، ففطن إلى ما بداخله من النفس التى تدركه لأنها قبس منه وأدرك أنها

مثله لا يلحقها فساد ولا فناء إذا طرحت البدن وتخلت عنه .

ويشتاق إلى التعرف بهذا الفاعل الموجود الواجب الوجود ، ويقول ابن طفيل إن من لا يتعرف عليه ويعرض عنه فى دنياه ويتبع هواه حتى توافيه المنية فقد حُرِم من مشاهدته وفى داخله الشوق إلى معرفته فيبقى فى عذاب طويل وآلام سرمدية ، أما من تعرف عليه والتزم الفكر فى جلاله وحسنه وبهائه على حال من الإقبال والمشاهدة فإنه يظل فى لذة لا نهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال مشاهدته للموجود واجب الوجود.

وأخذ حى يفكر كيف يتأتَّى له دوام المشاهدة . وهو قد يعرض له عارض مثل جوع أو عطش أو قضاء حاجة فيزول عما كان فيه من المشاهدة ، ويتعذر عليه الرجوع إليها إلا بعد جهد جهيد . ولما تصفح أحوال الحيوان ولم ير فيها ما يظن أنه شعر بالموجود واجب الوجود مثله علم أنه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالأجسام السماوية النورانية ، وأنه بذلك يباين سائر أنواع الحيوان ، مما جعله يفطن إلى أنه خُلِق لغاية وأمر عظيم وأنه يتكون من جزء ين أخسهما الجزء الجسمانى الخاضع لقانون الكون والفساد وأشرفهما الجزء الذى عرف به الموجود واجب الوجود ، وهو لا يُدْرَك بشئ من الحواس ، ولا يشبه الأجرام أو الأجسام السماوية المتمتعة بمشاهدة واجب الوجود ، وهى مشاهدة يخالطها شَوْب ، ومن أجل ذلك حاول أن يحصل على المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض فى مشاهدة واجب الوجود بحيث تغيب عنه ذات نفسه وتفنى وتنمحى ولا يبقى إلا ذات الواحد الحق واجب الوجود جلَّ شأنه . وحتى لا يعوقه عائق

عن هذه الحالة رأى أن لا يسرف فى غذائه وأن يكتفى فيه بما يسدُّ رمقه دفعاً للفساد عن ذاته ، ووقر فى نفسه أن الأجسام السماوية تشع الخير على العالم، فتشبَّه بها فى دفع الأذى عن النبات والحيوان ما أمكنه . ثم أخذ يلازم الفكر فى الموجود واجب الوجود محاولاً بكل طاقته أن لا يفكر فى شىء سواه ، واستعان على ذلك بالاستدارة على نفسه، وكلما استدار فيها غابت عنه جميع المحسوسات وتخلص لمشاهدة الموجود واجب الوجود . وكانت القوى الجسمانية تعاوده فتفسد عليه حاله ، وظل على ذلك مدة يجاهد القوى الجسمانية ، وكان قد تبين له أثناء نظره العلمى أن صفات الموجود واجب الوجود على ضربين : صفات إيجاب وثبوت مثل العلم والقدرة والحكمة وهى ترجع إلى حقيقة ذاته وليس منها معنى زائد على ذاته ، بل علمه بذاته هو ذاته (وابن طفيل فى ذلك يأخذ برأى المعتزلة وما قالوا به من أن صفات الله هى عين ذاته حتى لا يتعدد القديم جلَّ جلاله) . ويقابل هذه الصفات صفات سلبٍ ونفىٍ مثل تنزه واجب الوجود عن الجسمانية وكل صفات الأجسام . ورأى حى أن يتشبَّه بواجب الوجود فى صفات الإيجاب بحيث يحاول العلم بذاته دون أن يشرك به شَوْباً من صفات الاجسام كما رأى أن يتشبه به فى صفات السلب بحيث يطرح عن ذاته كل أوصاف الجسمية، وأخذ يروضُ نفسه على ذلك بحيث كانت تمر عليه عدة أيام لا يتغذى ولا يتحرك .

وما زال حى يطلب الفناء عن نفسه والخلوص لمشاهدة الحق حتى تأتَّى له ذلك فى التاسعة والأربعين من عمره بعد

مجاهدات شديدة ، فغابت عن فكره السموات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجُسْمانية وغابت ذاته فى جملة الذوات وتلاشى الكل وصار هباء منثوراً ولم يبق إلا الواحد الحق واجب الوجود كما جاء فى الآية القرآنية : (لمن الملكُ اليومَ لله الواحد القهار)، واستغرق فى حالته تلك « المعروفة لكبار المتصوفة » وشاهد ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويقول ابن طفيل : " فلا تعلِّق قلبك بوصف أمر لم يخطر على قلب بشر إذ ليس من عالمك " ، ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلاً ، وهو بمنزلة من يريد أن يذوق لوناً مثل السواد فيقول عنه إنه حلو أو حامض ، ومع ذلك لا نخليك من إشارات نومىء بها إلى ما شاهده من عجائب ذلك المقام ، فإن حيًا لما فنى عن ذاته ولم ير فى الوجود إلا الواحد الحى القيوم فى حال شبيهة بالسكر المعروف عند المتصوفة خطر بباله أن حقيقة ذاته هى ذات الحق وأن ليس فى العالم إلا ذات الحق ، وأن كل ما فى العدم منه بمنزلة الأجسام الكثيفة من نور الشمس فهى لا تُرَى إلا فيه ، وإن زالت عنه زال نورها وبقى نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضورها ولم يزد عند مغيبها .

وكان قد بان له أن ذات الحق لا تتكثر بوجه من الوجوه فعلمه بذاته هو نفس ذاته ، فلزم عنده من ذلك أن من حصل عنده العلم بذاته حصلت عنده اللذات ، واستشعر الفناء التام والاستغراق المحض الذى ينفصل فيه عن جسمانه البشرى انفصالاً تامًا (وابن طفيل بذلك يصل بين حى وبين من يقول

من الصوفية مثل ابن الفارض بالفناء والانمحاء فى الذات العلية) . ويقول ابن طفيل إن حيا فى حال أو فى مقام استغراقه وفنائه شاهد الفلك الأعلى البرىء عن المادة كما شاهد فلك الكواكب الثابتة الذى يليه وبراء ته عن المادة أيضاً، ورأى ذواتاً فى رتبة ذاته ولها حسنٌ وبهاء لا يعقله إلا الواصلون العارفون ، ورأى ذواتاً أخرى كأنها مرايا صدئة غطَّاها دنس قد أحاط بها سرادق العذاب وأحرقتها نار الحجاب، وتنبه من تلك الحالة فزلَّتْ قدمه عن ذلك المقام وعادت إليه حواسه ولاح له العالم المحسوس وغاب عنه العالم الإلهى .

ويكرر ابن طفيل أن الذوات الإلهية والأرواح الربانية متعلقة بذات الواحد الحق واجب الوجود وهو يعطيها الدوام ويمدها بالبقاء والخلود ، ولا حاجة لها بالأجسام إذ الأجسام هى التى تحتاجها أما هى فغنية عنها غنى تامًّا. وابن طفيل يشير بذلك إلى أن المعاد سيكون معاداً روحيًّا ويقول إن العالم المحسوس تابع للعالم الإلهى كظله ، ولذلك يستحيل فرض عدمه، وإنما فساده أن يتبدل ، ويستشهد على ذلك بما نطق به القرآن الكريم مراراً فى تصوير يوم القيامة وما يحدث فيه من تكوير الشمس وتفجير البحار كما قال تعالى : (إذا الشمس كُوِّرَتْ .. وإذا البحار سجِّرت) ومن تسيير الجبال كما قال (وإذا الجبال سيرت) وقال (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) أى الصوف المندوف . ويكمل ابن طفيل استشهاده على أن فساد العالم الحسى إنما هو بتغير صورته بقوله جلَّ شأنه (يوم تُبدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسمواتُ) فى وصفه ليوم

القيامة . ولما عاد حى إلى العالم المحسوس اشتد شوقه إلى العالم الإلهى، فكان يصل إليه بجهد يسير ، وحُبِّب إليه المقام فيه ، فكان لا ينثنى عنه إلا لضرورة بدنه ، وظل على ذلك حتى بلغ خمسين عاماً من عمره .

وكان بالقرب من جزيرة حى جزيرةٌ وصلت إليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء ، ومازالت تلك الملة تقوى فيها وتنتشر ، حتى نهض بها ملك وحمل الناس على التزامها . وكان بتلك الجزيرة فتيان هما أُبْسال وسَلامان اعتنقا الملة والتزما بشعائرها وأعمالها وَفقِها ما جاء فى شريعتها من صفة الله وملائكته وصفات المعاد والثواب والعقاب.

وكان أبسال أشد غوصاً على الباطن والمعانى الروحية وينزع إلى التأويل ، وأما سلامان فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر وأبعد عن التأويل . وكان فى تلك الشريعة أقوال تحمل على الانفراد والعزلة وأخرى تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة ، فشُغِف أبسال بطلب العزلة وشغف سلامان بالجماعة ، مما كان سبباً فى افتراقهما . وسمع أبسال بخصب الجزيرة المهجورة التى يعيش فيها حى ابن يقظان ، فرأى أن يرحل إليها ويعتزل الناس فيها بقية عمره ، وجمع أمواله ، واستأجر ببعضها مركباً يحمله إلى تلك الجزيرة وفرق باقيها على المساكين . ونزل أبسال الجزيرة وظل فيها يعبد الله ويعظمه ويقدسه ، وإذا احتاج إلى الغذاء تناول من ثمار تلك الجزيرة وصيدها ما يسدُّ به رمقه ، وفى أثناء ذلك كان حى مستغرقاً فى مقاماته ولا يبرح غاره أو كهفه إلا مرة فى الأسبوع لتناول شىء من الغذاء ، ولذلك لم يعثر عليه أبسال

لأول وهلة ، وظلا على تلك الحال مدة إلى أن خرج حى ذات يوم لالتماس غذائه فالتقى بأبسال ، وظن أبسال أنه من العبَّاد المنقطعين للنسك نزل الجزيرة لطلب العزلة مثله ، وأما حى فلم يدرِما هو لأنه لم يكن قد رأى إنساناً قبله ، وولَّى أُبسال هارباً منه خشية أن يشغله عن نُسكه ، وشرع فى الصلاة والقراءة والبكاء والتضرع والتواجد .

وجعل حى يقترب منه وهو لا يشعر به حتى دنا منه واستمع إلى قراء ته وتسبيحه وبكائه ، فلم يشك فى أنه من الذوات العارفة بواجب الوجود ، فزاد فى الدنو منه حتى أحس به أبسال فمضى على وجهه ، ولحق به حىّ ، فنظر إليه أبسال فرآه مكتسياً بجلود الحيوانات ذوات الأوبار وقد طال شعره فى أماكن كثيرة من جسده ، ففزع منه ، وكان على علم بكثير من اللغات فجعل يكلمه بكل لغة وحىٌّ لا يفهم ، واستراح إليه حى ، فرأى أن يقيم معه فى عالم الحس حتى يتعلم ، ورأى أبسال أن يعلمه الكلام والعلم والدين زُلْفَى عند ربه ، وأخذ يعلمه الألفاظ بالإشارة إلى أعيان الموجودات والنطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق بها مقترنة بالإشارة حتى علمه الأسماء كلها ، وتدرج به قليلاً قليلاً حتى تكلم فى أقرب مدة ، وجعل أبسال يسأله عن شأنه وكيف وصل إلى تلك الجزيرة ، فأعلمه أنه لا يعرف شيئاً عن مبدأ أمره ولا أباً ولا أمًا سوى الظبية التى ربّته ، ووصف له شأنه جميعه وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول إلى ربه .

ولما سمع أبسال منه وصف حياته وجهاده فى مفارقة عالم المحسوس

وعرفانه بذات الحق وما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين تطابَق عنده ما وصل إليه حى بما جاء فى الشريعة أو بعبارة أخرى تطابق المعقول بالمنقول ، فأضفى على حى غير قليل من التعظيم إذ تيقن أنه من أولياء الله الصالحين الذين (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والتزم خدمته . وجعل حى يسأله عن شأنه وشأن جزيرته وحال سكانها بعد وصول الملة إليهم ، ووصف له أبسال جميع ما ورد فى الشريعة المحمدية من وصف العالم الإلهى وما يتصل به من الجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط ، فلم ير حَيٌّ فى ذلك كله شيئاً على خلاف ما شاهده فى مقامه الكريم ، فعلم أن الذى وصف ذلك وجاء به محق فى وصفه صادق فى قوله ، رسول من عند ربه ، فصدقه وآمن به وبرسالته ، وسأله عما جاء به من الفرائض فوصف له الصلاة والزكاة والصيام وما أشبه ذلك من الأعمال الظاهرة فالتزمها وأخذ نفسه بأدائها امتثالاً لما صح عنده من صدق قائله ، غير أنه بقى فى نفسه أمران أولهما : لِمَ ضرب الرسول للناس الأمثال ولم يكاشفهم بحقيقة العالم الإلهى ، مما جعلهم يقعون فى أمر عظيم من التجسيم، كما جعلهم يعتقدون أشياء فى ذات الحق هو منزه عنها وأشياء أخرى فى أمر الثواب والعقاب . وثانى الأمرين إباحته اقتناء الأموال والتوسع فى المأكل، مما يجعل الناس يعرضون عن الحق ويشتغلون بالباطل ، وفى رأيه أن الإنسان فى مأكله لا يحتاج إلا إلى ما يسدُّ به رمقه ، ولو أن الناس أعرضوا عن بواطل دنياهم وأقبلوا على واجب

الوجود الحق لاستغنوا عن هذا كله .

وطمع أن تكون نجاة سكان جزيرة أبسال على يديه ، وحدَّثه بما فى نفسه فوافقه ، وكانت سفينة قد ضلَّت وحملتها الرياح إلى ساحل الجزيرة فسألا من فيها أن يحملوهما إلى الجزيرة المذكورة ، ونزلا بها ، ودخلا مدينتها . وكان يحكمها سلامان التقى الذى مر بنا أنه كان يرى ملازمة الجماعة . وأخذ حى يحاول أن يرقى بأهل الجزيرة عن الظاهر إلى العالم الإلهى سراً وجهاراً ، فلا يزيدهم كلامه إلا نبواً ونفاراً ، فيئس من إصلاحهم ، وانقطع رجاؤه من صلاحهم، إذ رآهم يتهالكون على الدنيا وجمع حطامها ، ولا تنجح فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الطيبة ، ويتمثل بقوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقوله (خَتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشاوة) .

وييأس حى من مخاطبة أهل تلك الجزيرة عن طريق التذوق الروحى ، ويرى أن شرائع الرسل هى التى تلائمهم وتستقيم بها حياتهم ومعاشهم . ويعتذر لسلامان عما كلَّم به سكان الجزيرة ويوصيهم بالتزام حدود الشريعة والإعراض عن الأهواء والبدع ففى ذلك منجاتهم . وحسبهم ذلك إذ لا يستطيعون اللحاق بدرجة السعداء الذين يستغرقهم الفناء فى واجب الوجود وما يغمرهم به من فرح باتصال مشاهدته . وودَّع حى وأبسال سكان الجزيرة ، ويسر الله لهما العبور إلى جزيرتهما ، فعادا إليها ، وظلا يعبدان الله بها حتى أتاهما اليقين .

—٢—

وقد ترجمت هذه القصة الفريدة مراراً إلى اللاتينية واللغات الأوربية

الحديثة ، ومن أقدم ترجمات الغربيين لها إلى اللاتينية ترجمة پوكوك فى أكسفورد سنة ١٦٧١ وفى العام التالى ترجمت إلى الهولندية ، وترجمها أوكلى إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوء ترجمته كتب دانييل ديفو قصته (روبنسن كروزو) سنة ١٧١٩ . وترجمها إلى الألمانية بريتوس سنة ١٧٢٦ . وأعاد ترجمتها إلى تلك اللغة إنجهورن سنة ١٧٨٢ . وترجمها فى سنة ١٩٠٠ بونس بويجس إلى الأسبانية وليون جوتييه إلى الفرنسية ، وترجمها بتروف إلى الروسية سنة ١٩٢٠ . وترجمها پالنثيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ . وأعاد جوتييه ترجمتها إلى الفرنسية سنة ١٩٣٦ . كما أعاد پالنثيا ترجمتها إلى الإسبانية سنة ١٩٤٨ . وكان قد ترجمها قديماً إلى العبرية موسى الأرجونى سنة ١٣٤١ للميلاد .

ونُشرت فى سنة ١٦٥١ قصة الكريتيكون لجراسيان اليسوعى الأرجونى ، ولاحظ منندز بيلايو تشابهاً بين جزئها الأول والجزء الأول من قصة حى بن يقظان لابن طفيل ، إذ تستهل بنجاة كريتيكون من الغرق وتقذف به الأمواج إلى شاطىء جزيرة يلتقى فيها بفتى يسكن فى مغارة ولا يعرف له أباً ولا أمًا ولا كيف نشأ ولا كيف يتخاطب مع الناس ، ويعلمه كريتيكون لغته ، ويرحل به إلى إسبانيا ثم إلى فرنسا ثم إلى إيطاليا فجزيرة الخلود ، وواضح أن قصة الكريتيكون إنما تلتقى بقصة ابن طفيل فى صفحاتها الأولى ثم تنقطع صلتها بها انقطاعاً تامًا .

وعثر غرسيه غوميس على قصة فى مخطوط موريسكى بمكتبة الإسكوريال يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى

بعنوان قصة الصنم والملك وابنته وهى تحكى أن بنت الملك عزلت عن الناس فى محبس خوفاً عليها من طالع سييء فاتصل بها ابن وزير ، فحملت منه ، وخوفاً على وليدها وضعته فى صندوق من الخشب ألقت به فى اليمِّ فحملته الأمواج إلى جزيرة مهجورة ، فتبنَّته غزالة ونما فى رعايتها وكان الملك قد غضب على وزيره فنفاه إلى تلك الجزيرة والتقى به وهو لا يعرفه ، وعجب من أمره وأخذ يعلمه . وتمر بهما مركب فتنقلهما إلى الجزيرة المأهولة . وبدلاً من أن يقول غرسيه غوميس إن حكاية الصنم والملك وابنته التى دُوِّنت فى مخطوط موريسكى بعد خروج العرب من الأندلس استضاءت بقصة حى بن يقظان التى تسبقها بثلاثة قرون ، كما يقضى بذلك المنطق ، زعم أن القصة الموريسكية وقصة حى بن يقظان لابن طفيل جميعاً استمدتا من أصل كان شائعاً بين العرب أجداد الموريسكيين ، كل ذلك لينزع من ابن طفيل عبقريته فى قصته الرائعة دون أى دليل على وجود هذا الأصل العربى الذى ألهم ابن طفيل قصته ، كما ألهم من بعده صاحب القصة الموريسكية قصته . وأيضاً كان ينبغى أن يعترف بأن القصة الموريسكية استلهمت ظاهراً من قصة ابن طفيل دون أن تستلهم مضمون قصته الفلسفى وبيان أطوار الحياة التى عاشها حى بن يقظان ، وكيف كان فى طوره الأول يشبه الحيوان فى حياته وطبيعته ، وكيف تنبه فى نهاية هذا الطور إلى ستر سَوْء تيه واستخدام العصا للدفاع عن نفسه . ورأى فى بدء طوره الثانى أمه الظبية تموت فشرَّحها باحثاً عن معرفة السبب فى وفاتها ، واكتشف أن القلب كان

مصدر حياتها كما اكتشف وظائف الجسد وما يحركه . وفى الطور الثالث اكتشف النار وعرف طرق استخدامها واستنبط وجود الروح أو النفس فى الجسم ، وفى الطور الرابع هداه اتفاق الأشياء فى المادة واختلافها إلى التعرف بوضوح على عالم الكون والفساد . ويبلغ حينئذ الثامنة والعشرين ، ويتجه فى طوره الخامس إلى السماء والفضاء ، ويأخذ فى رصد الكواكب والأفلاك ، ويَمْثُلُ له العالم بقدمه وحدوثه . وفى الخامسة والثلاثين يبدأ حى طوره السادس ، وفيه يهتدى إلى أنه لابد للكون والكائنات من موجد منزَّه عن المحسوسات ، كما يهتدى إلى أنه لم يدرك هذا الموجد للكون بالحس ، وإنما بشىء فيه غير الحس هو النفس التى تختلف عن الجسد فى مصيرها والتى تتوق إلى مشاهدة واجب الوجود وهى لا تموت بموت الجسد ، إذ هى خالدة . وحى فى هذه الأطوار الستة ينتهى إلى أعلى ذروة فى الفلسفة بادئاً من الطور الحيوانى ، ومستمراً فى أطواره التالية باحثاً عن حقائق الأشياء وما يزال يبحث عنها حتى يصبح فيلسوفا كاملا دون أى عون فى معارفه . وتكُّون عقله وعمق بصره ونفاذه يأتيه من خارج ذاته . حتى إذا استوفى به ابن طفيل كل هذه الأطوار عبر به إلى الطور السابع ، وفيه يشعر حى أن سعادة النفس إنما تكون بمشاهدة واجب الوجود والاستغراق فيه على نحو ما يستغرق المتصوفة ، حتى لا يرى فى الكون ولا يسمع سواه ، إذ يفنى فيه وينمحى ، ومازال – كما يقول ابن طفيل – يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص فى مشاهدة الحق (واجب الوجود) حتى

تأتّى له ذلك وغـــابت عن ذكـــره وفكره السموات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية ، وجميع القوى المفارقة للمواد التى هى الذوات العارفة بالموجود الحق ، وغابت ذاته فى جملة تلك الذوات، وتلاشى الكلّ واضمحل ، وصار هباء منثورا ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود ، واستغرق فى حالته هذه ، وشاهد مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وشىء من هذا الطور الذى انتـــهى بحى عند ابن طفيل إلى التصوف والذى انمحت فيه انفعالات الحواس وفاضت عليه مشاعر الوجد الصوفى لا نجد له أى أثر فى حكاية الصنم والملك وابنته ولا فى قصة الكريتيكون ، وبالمثل الأطوار الستة السابقة لهذا الطور التى أخذ حى يتدرج فيها من التعرف الدقيق على حاجاته المادية إلى التأمل فى الطبيعة والسماء حتى عرف الكون من حوله ، واتسع فى تأمله حتى عرف الله وعرف نفسه معرفة بصيرة ، وبذلك وصل إلى كماله الفلسفى، كما وصل بعد ذلك إلى كماله الصوفى .

وكل تلك الأطوار وما يطوى فيها من آراء علمية وفلسفية وصوفية لابن طفيل والتى تقوم من القصة مقَامَ اللُّحْمة والسَّدَى فى النسيج لم يقف عندها غرسيه غوميس فى بيان المشابهة بين القصة الموريسكية وقصة ابن طفيل ، إنما وقف عند ظاهر من القالب القصصى وكان حريا به أن يعرف أن قصة حى بن يقظان لابن طفيل كانت معروفة بإسبانيا فى الأوساط اليهودية منذ القرن الرابع عشر بشهادة ترجمة موسى الأرجونى لها كما أسلفنا ولابد أنها كانت معروفة فى الأوساط

الإسبانية المسيحية حينئذ ، بل لعلها كانت معروفة قبل ذلك ، وأكبر الظن أنها ترجمت إلى الإسبانية فى القرن الثالث عشر لعهد ألفونس العاشر ويؤكد ذلك بالنثيا قائلا إنها مما نقل إلى أوربا عن طريق مدرسة طليطلة التى ازدهرت بها الترجمة لعهده (انظر كتابه تاريخ الفكر الأندلسى ص٥٤٠) . وإذن لا يبقى فى يد غرسيه غوميس شىء مما لجَّ فيه من الغَضِّ من عمل ابن طفيل المبتكر فى قصته ، فقد كانت معروفة هى وقالبها القصصى فى الأوساط الأدبية العربية والإسبانية قبل كتابه القصة أو الحكاية الموريسكية بثلاثة قرون على الأقل وقد نقل القاص الموريسكى ظاهرا من قالبها ولم يستطع نقل نسيجها القصصى البديع الفلسفى والصوفى .

وفى رأيى أنه كان أولى بغرسيه غوميس أن يبحث عن المصادر الحقيقية للقصة إذن لعرف أنها مصادر إسلامية صرفة ، وقد أشار ابن طفيل إلى تلك المصادر أو بعضها - بوضوح - فى مقدمتها إذ ذكر أنه رجع إلى كتابات ابن باجة الفيلسوف الأندلسى قبله ، فوجده لا يؤمن بالنزعة الصوفية ورجع إلى كتابات الفارابى فوجده يذهب إلى أن السعادة إنما هى فى الحياة الدنيا والكل مصيره إلى العدم مع سوء معتقده فى النبوة وتفضيله الفلسفة عليها ، فانصرف عنه كما انصرف عن أرسطو كما يمثله كتاب الشفاء لابن سينا ، وبالمثل انصرف عن الغزالى ، لما فى كتاباته من تناقض مع إيمانه بأنه سعد بقراء ته السعادة القصوى ، غير أنه لم يجد عنده مطلبه ، إنما وجده عند ابن سينا فى كتابه أسرار الحكمة المشرقية التى تقابل الحكمة

اليونانية والتى تفتح الأبواب للإنسان كى ينزع منزعا صوفيًا يتذوق فيه اللذة الروحية العليا التى لا يمكن لعبارة أن تحيط بها أو تصورها ، وهى لذة لا يصل إليها الإنسان إلا بعد رياضات ومجاهدات شتى ، بحيث تنمحى فيه كل إرادة ، وما يزال يرقى فى هذا الانمحاء حتى لا يسمع ولا يرى سوى واجب الوجود ، بل حتى يفنى ويتلاشى فيه وحينئذ تغمره اللذة الروحية العليا ويفرح فرحا لا يماثله فرح ، لما يشرق على روحه من النور الإلهى الباهر. وينصح ابن طفيل فى آخر تقديمه للقصة سالك هذا الطريق بأن يقرأ قصة حى ابن يقظان وقصة أبسال وسلامان عند ابن سينا ، ففى قصتيهما عبرة لأولى الألباب . والقصتان عنده رمزيتان ، فحى فى الأولى رمز للعقل الفعال آخر العقول الفلكية المؤثر فى حياة الإنسان ، ويتراءى فى قصته شيخا بهيا يقود إلى شريعة الحكمة الصوفية الإلهية حيث النور حجاب النور وحيث السر الأزلى . بينما يتراءى أبسال فى قصته مع سلامان عند ابن سينا مثالا للعقل المحض المتعمق فى اللذات العقلية وما يطوى فيها من اللذات الروحية . وأشخاص هاتين القصتين عند ابن سينا هم نفس أشخاص قصة حى بن يقظان عند ابن طفيل ، غير أنهم عنده أشخاص حقيقيون على نحو ما رأينا أبسال عند ابن طفيل فهو إنسان حقيقى تخلص من مآربه المادية لعبادة ربه ونسكه ، وبالمثل حى بطل قصته ليس رمزا لشىء وإنما هو إنسان حقيقى تدرج فى أطوار الإنسان المعروفة طورا وراء طور ، حتى انتهى إلى طوره السابع طور الفناء والانمحاء فى الذات الإلهية . وحى

فى كل تلك الأطوار التى مـــرت به وفى القـالب أو الإطار القـصـصـى الذى وُضع فيه إنما هو من صنع ابن طفيل لأول مرة فى تاريخ الإنسانية منذ أن كانت ترضعه الظبية وترعاه إلى أن أشرق على روحه نور الله مبدع الكون وموجده .

وابن طفيل يفتتح قصـة حى ببيان نشـأته الأولى وما فيها من خلاف ، فقيل إنه ولد فى جزيرة من جزر الهند ، وهى الجزيرة التى سماها المسعودى جزيرة الوقواق والتى بها شجر يثمر نساء . وأنكر ذلك قوم ، وقالوا إنه ولد لأب وأم، وقصوا فى ذلك خبرا ذكروا فيه أنه كان بإزاء تلك الجزيرة المهجورة جزيرة متسعة الأرجاء معمورة بالناس ، ملكها غشوم جبار شديد الأنفة والغيرة ، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر ، فبلغ من غيرته عليها أن منعها من التزوج ظلما لعدم وجود كفء فى رأيه يصلح لها ، وكان له قريب يسمى " يقظان " تزوجها سرا وحملت منه . ولما وضعت وليدها خافت أن يفتضح أمرها ، فرضعته ثم وضعته فى تابوت أحكمت إغلاقه ، وخرجت به ليلا فى طائفة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر ، ودعت الله أن يحفظه ويكلأه ، وقذفت به فى اليم ! فألقاه الموج بساحل الجزيرة المهجورة ، وأخذت مسامير التابوت تزايله وطار لوح من أعلاه ، واشتد بالوليد الجوع – كمامرَّ بنا – فبكى واستغاث وتنبهت له ظبية فقدت ابنها فحنت عليه وأرضعته ، وظلت ترعاه .

وهذا التصور لحى وخبره مع أمه وأخيها الملك الغيور يلتقى بما جاء فى تاريخ الطبرى وغيره من كتب التاريخ العربى من خبر عن هارون الرشيد مع

أخته العباسة ووزيره جعفر بن يحى البرمكى الفارسى فقد كان كلفا بهما ولا يستطيع الصبر عن الاجتماع بهما فى مجلسه ، فأذن لهما فى عقد الزواج على أن لا يتجاوزا ذلك إلى خلوة حتى لا يلتحم نسب أبناء أخته العربية الشريفة بجعفر البرمكى الفارسى الأعجمى . ويمضى الخبر فيقول إن العباسة شُغفت بجعفر ، فاحتالت عليه فى التماس خلوة به ، وحملت منه ، ولما وضعت وليدها اشتد خوفها من أخيها هارون الرشيد إن علم بذلك فوجهت بالوليد مع حواضن لها من مماليكها إلى مكة ، وسترت أمره عن أخيها . والصلة واضحة بين خبر وليدها وما كان من أمرها وبين خبر ميلاد حى سرا من أخت ملك الجزيرة المعمورة وما كان من محاولتها كتمان أمرها والتخلص من الوليد . وفى رأينا أيضاً أن ابن طفيل استلهم فى وضع أم حى لوليدها فى تابوت والإلقاء به فى اليم ما جاء فى القرآن الكريم من خبر أم موسى عليه السلام حين وضعته وخافت عليه أن يقتله فرعون وبطانته ، وكانوا يقتلون أبناء اليهود ويستحيون بناتهم ، فأوحى الله إليها كما جاء فى سورة طه : (أن اقْذِفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل) . ونفس هذه الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حى بن يقظان إنها : " وضعت ابنها فى تابوت ثم قذفت به فى اليم فاحتمله الماء بقوة المد إلى ساحل الجزيرة " . وبذلك يتضح أن ابن طفيل نسج هذه الرواية عن حى بن يقظان فى حمل أمه له وإلقائه فى اليم خوفاً من أخيها مما ساقه بعض المؤرخين عن العباسة أخت الرشيد وحملها سرا من جعفر البرمكى وزيره

ومما جاء فى القرآن الكريم عن وحى الله لأم موسى حين خافت عليه من فرعون وصحبه أن تضعه فى تابوت وتقذف به فى اليم . والرواية بذلك – عند ابن طفيل– منسوجة أو مأخوذة من مصادر إسلامية خالصة .

وبعد أن عرض ابن طفيل هذه الرواية عاد إلى الرواية التى تقول إن حيا تولد من الأرض فى جزيرة هندية صالحة لحدوث تولد الإنسان ، ونقل عن أصحابها أن بطنا من أرض تلك الجزيرة تخمَّرت فيه طينة على مر السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل ، وتمخضت تلك الطينة وتعلق بها الروح ، ثم كان ذلك الطفل : حَىّ ، واستغاث عند اشتداد جوعه فلبته ظبية فقدت وليدها وأرضعته ورعته . وابن طفيل لا ينظر فى هذه الرواية لنشأة حى إلى ما رواه المسعودى عن جزيرة الوقواق كما أسلفنا فحسب ، بل ينظر إلى ما جاء فى كتب الأعاجيب والأساطير العربية من أن آدم خلق فى جزيرة هندية هى سيلان ، كما ينظر إلى ما ذكره القرآن الكريم مرارا وتكرارا عن الإنسان الأول آدم من أنه خلق من طين فى مثل قوله جل شأنه : (وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين) وقول إبليس لربه مفاضلا بينه وبين آدم : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين). فتصور ابن طفيل لخلق حى من طين تخمر فى جزيرة هندية صالحة لأن يحدث فيها تولد الإنسان دون أم ولا أب يمتزج فيه ما جاء فى الذكر الحكيم عن خلق آدم من طين وما جاء فى الأساطير العربية من أن آدم خلق فى جزيرة سيلان الهندية . ويبدو أن ابن طفيل آثر الرواية

السابقة فى نشأة حى ، لذلك سمى القصة قصة حى بن يقظان .

ونمضى فى القصة فتموت الظبية أم حى ، ويأخذ جسمها فى النتن ، وتفوح منه رائحة كريهة ، فيحار حى بن يقظان ماذا يصنع بها ، وبينما هو مستغرق فى ذلك إذ يبصر غرابين يقتتلان حتى صرع أحدهما صاحبه وقضى عليه ، وجعل الغراب الحي يبحث فى الأرض حتى حفر حفرة وارى فيها الغراب الميت بالتراب ، فقال حى فى نفسه : ما أحسن ما صنع هذا الغراب فى مواراة جيفة صاحبه .. وأنا كنت أحق بالاهتداء إلى هذا الفعل بأمى ، وحفر حفرة ، وألقى فيها جسد أمه وحثا عليها التراب. وابن طفيل ينقل ذلك عما جاء فى سورة المائدة من خبر ابنى آدم : قابيل وهابيل إذ قتل أولهما الثانى ولم يعرف ماذا يصنع بجثته ، يقول المفسرون : فأرسل الله غرابين شقيقين يقتتلان تحت بصره وقتل أحدهما أخاه ، وأخذ الغراب الحى يبحث فى التراب حتى حفر لأخيه حفرة واراه فيها ، فصنع قابيل لأخيه حفرة مماثلة وارى جثمانه فيها وحثا عليه التراب ، ومن يرجع إلى مقتل قابيل لهابيل فى آيات سورة المائدة يجدها تختتم بقوله تعالى : (فبعث الله غُرابا يبحث فى الأرض ليُرِيَه كيف يوارى سَوْءَة أخيه قال ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارىَ سوءة أخى) .

ويأخذ عقل حى فى النضج منذ طوره الرابع بعد الحادية والعشرين من عمره ، وفيه تعرَّف على عالم الكون والفساد وأخذ فكره يلتحم بفكر ابن سينا فى الإلهيات وواجب الوجود ، وهداه تفكيره إلى أن له جسما ونفسا لها معنى

زائد على جسميته ، كما هداه إلى أن الأفعال الصادرة عن الأجسام فى الظاهر لا تصدر عنها إنما تصدر عن فاعل وراءها ، وتأثر ابن طفيل فى ذلك بما جاء فى رسالة لابن سينا فى القدر يقول فيها إن الله قدَّر الأشياء على ما هى عليه قبل خَلْقها . وهما جميعا ينزعان فى ذلك منزع أهل السنة القائلين بأن كل فعل للإنسان إنما هو بقدر الله قدَّره عليه تقديرا لا مفر منه .

وننتقل مع حى إلى الطور الخامس فى حياته بعد الثامنة والعشرين من عمره وفيه اهتدى إلى ماسبقه إليه ابن سينا من أن الكون كله أو العالم كله كشخص واحد ، وأخذ يتساءل هل هو قديم أو حادث ، وظل يفكر فى ذلك عدة سنين ، وحجج القدم والحدوث تتعارض ولا يترجَّح له اعتقاد على آخر ، واستبان له حينئذ أن الله منزَّه عن الجسمية وما يتصل بها من الأوصاف وأن كل ما فى الوجود يستمد وجوده منه فهو علة وجوده، وانتهى بعد طول تفكيره فى قدم العالم وحدوثه إلى رأى ابن سينا القائل بأن العالم قديم ، ولكن قدمه زمانى لا ذاتى ، فالقدم الذاتى إنما هو خاص بالذات العلية . ويوضح ابن طفيل هذا القدم الزمانى للعالم دون القدم الذاتى قائلا : " إن العالم كله بما فيه من السموات والأرض والكواكب وما بينها وما فوقها وما تحتها فعل واجب الوجود، وخَلْقه متأخر عنه بالذات وإن كان غير متأخر بالزمان كما أنك إذا أخذت فى قبضتك جسما من الأجسام ثم تحركت يدك فإن ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعا لحركة متأخرة عن حركة يدك تأخرا بالذات وإن كانت لم تتأخر بالزمان عنها،

بل كان ابتداؤهما معا ، فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل (واجب الوجود) دون تأخر فى الزمان . وبذلك يوفق ابن طفيل ومن قبله ابن سينا بين رأى فلاسفة اليونان بقدم العالم ورأى أهل السنة والجماعة في أنه محدث ، فقدم العالم إنما هو قدم زمانى لا ذاتى فهو قديم ومحدث معاً ، والله بذلك وحده هو الأول السابق لكل ما في الوجود . ويتتبع حى صفات الكمال فى الموجودات ويرى أنهاصادرة عن موجدها المتصف بها كما يتتبع صفات النقص ويراه منزها عنها بريئا منها كل البراءة .

ونرافق حيا في طوره السادس من حياته بعد الخامسة والثلاثين من عمره ، ونراه يهتدى إلى أنه إنما يدرك موجد الكون بشئ فى داخله غير الحس هو النفس التى تعد قبسا منه ، وهى لذلك – مثله – خالدة ولا يجوز عليها فساد ولا فناء ، وابن طفيل فى ذلك يلتحم بابن سينا وفكرته عن النفس وأنها أبدية خالدة مثل موجدها وأنها لذلك تشتاق إلى معرفته والصعود إلى عالمه . ويصور ابن طفيل العذاب والنعيم فى الآخرة فمن اتبع هواه وحرم نفسه فى دنياه من اللذة الروحية حتى توافيه المنية يظل فى عذاب طويل وآلام سرمدية ، ومن عرف واجب الوجود والتزم التفكير فى جلاله وبهائه واستغرق فى مشاهدة نوره يظل فى أخراه ناعما بلذة روحية لا نهاية لها وفرح متصل دائم . وتأمل حى فى صفات الله واهتدى إلى أن منها صفات إيجاب وصفات سلب ، وصفات الإيجاب مثل العلم والقدرة والحكمة ، وجميعها ترجع إلى حقيقة ذاته وليس منها معنى يمكن أن يوصف بأنه زائد على ذاته . وابن

طفيل فى ذلك يأخذ برأى المعتزلة فى الصفات الإلهية القائلين بأنها عين ذاته حتى لا يظن تعدد فى واجب الوجود بأى صورة من الصور . وصفات السلب كلها تطرح عن واجب الوجود كل أوصاف الجسمية التى تعلَّقْت بها - كما هو معروف - فرقة المشبِّهة ، تعالى الله عنها علوا كبيرا .

ونتحول مع حى إلى الطور السابع من عمره فى أواخر الأربعينيات ، ونجده قد أصبح من الواصلين الذين يُفْنون شخصياتهم فى واجب الوجود بحيث لا يشعرون بوجود أى شئ سواه ، حتى أنفسهم لا يشعرون بها ، فليس فى الوجود بحق سوى الله ، وغابت عن فكره السموات والأرض وجميع القوى الجسمانية والصور الروحانية بما غرق فيه من لذة السكر الروحى ورحيقه الإلهى الصافى . وبذلك حقق ابن طفيل لابن سينا فى هذا الجزء أو الطور من القصة كل ما كان يحلم به فى كتاباته من النزوع الصوفى ، وقد مضى معه يؤكد أن الله واحد أحد ولا يتكثر بأى وجه من الوجوه وأن الأفلاك بريئة عن المادة وأن الأرواح لا تحتاج إلى الأجسام مشيرا بذلك إلى أن المعاد كما قال ابن سينا سيكون معادا روحيا . ويقول إن العالم المحسوس ظل للعالم الإلهى ، ولذلك لا يجوز عليه العدم ولا الفناء وأن ما سيحدث فيه يوم القيامة إنما هو تبدل على نحو ما صور ذلك محكم التنزيل فى سورتى التكوير والقارعة ، ويستدل أيضا على رأيه بآية سورة إبراهيم فى وصف يوم القيامة : (يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ وبرزوا لله الواحد القهار) فلن يفنى العالم - فى رأى ابن طفيل - ولا

الأرض والسمـوات يوم البـعث ، بل سيحدث فيهما تبدل وتغير شامل .

ونظل مع حى حين نزل جزيرته تقى مسلم هو أبسال من جزيرة مجاورة يطلب الخلوة لعبادته ربه ، فتعرَّف على حى ، وعلمه الكلام وعرف منه أطوار حياته وانتهاءه فيها إلى طوره الأخير الذى أشرق فيه على جنبات نفسه النور الإلهى ، وما كان أشد عجب أبسال إذ رأى فلسفة حى تلتقى مع شريعته السماوية ، وكأنهما وجهان لعملة واحدة ، وعرف منه حى أن سكان جزيرته يدينون بشريعة الإسلام ، وسأل أبسال عنها فعرفه بما جاء فيها من وصف العالم الإلهى والبعث والحساب والجنة والنار ، فاقتنع بأن محمدا صاحب هذه الشريعة الإلهية رسول من عند ربه ، فآمن به وصدَّقه ، وسأل أبسال عما جاء به من الفرائض ، فذكر له الصلاة والزكاة والصيام فالتزمها . وكان يتساءل فيما بينه وبين نفسه لماذا لم يكاشف الرسول الناس بحقيقة العالم الإلهى وعمد إلى ضرب الأمثال الحسية لهم ، ولماذا أباح لهم اقتناء الأموال والتوسع فى المأكل . وكان ينبغى – فى رأيه – أن يأخذهم بالتقشف والقناعة بكفاف العيش . وسأل أبسال أن ينزل به فى جزيرته لعل الله يهدى به طائفة من معارف أبسال المريدين . ونزلاها ، فرأى حى أهلها يتكالبون على حُطام الدنيا ، وحاول أن يسمو بهم فى مراقى الحقيقة الإلهية والمكاشفة الربانية ، فنفروا منه نفورا ما بعده نفور ، واستقر فى نفسه أن مخاطبتهم عن طريق المكاشفة الإلهية لا تمكن وأن الشريعة الدينية هى التى تصلح لهم ولمعاشهم وأن حسبهم أن

يلتزموا حدودها ولا ينحرفوا عنها إلى شئ من الأهواء والبدع . وابن طفيل فى هذه النهاية من قصة حى يستضيئ بما ذهب إليه ابن سينا فى رسالته : "مقامات العارفين " من أن أحكام الشريعة وضعت للعامة ولما كانت لا تستطيع الرقى إلى معرفة الحقائق الإلهية ، مثلتها لهم الشريعة بضرب الأمثال الحسية ، فمثلت لهم المعاد ماديا ببعث الأجسام والعذاب بعذاب الأبدان فى النار والنعيم بمتاع الجنة وما فيها من الطيبات . كل ذلك – فى رأى ابن سينا – إنما هو تمثيل ، أو كما يقول ابن طفيل فى القصة إضراب عن المكاشفة التى لا تستطيع العامة أن ترقى إليها .

ولعل فى كل ما أسلفت ما يصور جسامة الخطأ الكبير الذى وقع فيه غرسيه غوميس ، كما أسلفنا ، وأنه كان حريا به أن يبحث عن مصادر قصة حى ابن يقظان فى الأفكار الإسلامية المبثوثة فيها والتى حاولنا أن نوضحها ، مع كثرة ما يتمثل به ابن طفيل من الآيات القرآنية، ومع اعتناق حى فى أواخرها للشريعة الإسلامية . وقد نبه ابن طفيل فى سطورها الأولى – دون مواربة – إلى أنه ألفها ليبث فيها ما يمكن بثه من أفكار ابن سينا فى كتابه : " أسرار الحكمة المشرقية " وهى تقابل عنده الحكمة أو الفلسفة اليونانية التى لا تستطيع فى رأيه الرقى إلى العالم الإلهى وما يتصل به من السعادة الروحية . وقد أوضحنا بالتفصيل ما بثّه ابن طفيل فى القصة من أفكار ابن سينا . والطريف أنه قال فى نهايتها إن ماذكره من نبأ حى بن يقظان وأبسال وسلامان لا يوجد فى كتاب ، وكأنه كان مطلعا على الغيب وأنه

سيظهر فيما بعد من يحاولون أن يسلبوه ابتكار القالب القصصى لقصة حى بن يقظان بهتانا وافتراء عليه . وبدون ريب ستظل لابن طفيل عبقريته فى اختراع القالب القصصى لقصة حى بن يقظان «ولأطوار حياته السبعة المترابطة فيها ، ولما حشده فى تضاعيفها من أفكار تتصل بالعالم الإلهى وما بث فيها من الروح الإسلامى، مع الدقة المتناهية فى حبكتها القصصية وتسلسلها المنطقى المحكم، ومع حيوية العرض وبراعة الأداء، مما يجعلها بحق من أعظم الأعمال القصصية العالمية .

شوقى ضيف

نائب رئيس المجمع